العاشق الحائر

(1)

ذات صباح مشرق جميل، كان يسير معها ببذلته العسكرية الأنيقة، وهي بفستانها الوردي وبيدها حقيبتها الصغيرة السوداء، تداعب الريح خصلات شعرها الحالك كسواد الليل يهمس لها:

ـ أنا لا أطيق فراقك.

هتفت هي:

ـ حتى أنا أيضًا لو لم تكن عمتي مريضة لما سافرت.

هي جارة له، تعمل معلمة بإحدي المدارس الابتدائية، متوسطة الجمال، أنيقة الهندام، كانا يلتقيان كثيرًا، أحبها وأحبته أزداد حبها رونقًا وجمالًا، كانا يسيران وعندما وصلا إلى المحطة صافحها، وهو يشد على يدها، الأعين الرصاصية تحدق فيهما، وهي تكاد تخرج من محاجرها، ودعها ذاهبًا إلى معسكره.

(2)

وبعد مضي ساعة من الوقت، يصل إلى مسامعه وهو في المكتب وقع خطوات، تتوقف أصابعه عن الضرب على الآلة الكاتبة إنه الآمر بعد لحظات يستدعيه يبادره قائلًا في دفعة واحدة:

ـ لقد تقرر نقلك مع «كتيبتك» إلى الجنوب وبالتحديد إلى سبها.

كاد ان يسقط على الأرض مغشيًا عليه، لولا أن تمالك قواه وشد على أعصابه، يا له من خبر صاعق! شحب وجهه وتفصد جبينه عرقًا، أجاب مترددًا:

ـ لكن يا سيدي لا أستيطع..

قاطعه الآمر بقسوة:

ـ هذا أمر ويجب عليك أن تنفذه على الفور فلست وحدك ولا مجال للمناقشة فيه؟

كيف ينتقل هو إلى هناك في الجنوب؟ وما المدة التي سيقضيها هناك؟ إنه لا يدري كيف يبتعد عن حبيبته؟ هو لا يطيق فراقها، لكن ما باليد حيلة إنها الأوامر والتعليمات العسكرية القاسية، عاد إلى منزله مع الظهيرة يجر قدميه بخطى متثاقلة، وقلبه مفعم بالحزن والقلق: إنه حائر.. حائر.

في صباح اليوم التالي قصد تلك النافذة التي شهدت أروع أيام حبهما، وجلسا يتناجيان تحتها، اقترب منها دس في زاويتها قصاصة صغيرة من الورق، ثم ودع أهله وغاب عن الأنظار، واختفى في تلك الحافلة التي ستقله إلى هناك.

(3)

وبعد أسبوع عادت الحبيبة، وهي في شوق وحنين لرؤية فتى أحلامها وفارسها الأنيق وما إن فتحت نافذة غرفتها حتى سقطت منها ورقة التقطتها بدهشة متسائلة! من أين هذه؟ وبيد مرتعشة أمسكت الورقة حدقت في سطورها قرأت بسرعة:

حبيبتي الجميلة/ حواء

شاءت الظروف أن أسافر دون أن أجدك في وداعي، لقد انتقلت مع كتيبتي إلى الجنوب، ولعل تعسكرنا هناك لن يطول، بضعة أشهر وسوف أعود أخطبك من أهلك، وتزفين إليّ وتبقين معي مدى الحياة أرجو المعذرة وهدئي من روعك وليطمئن بالك وأسلمي لمن لا ينساكِ مدى العمر.

المخلص لك على الدوام/ خالد.

كانت صدمة قاسية بالنسبة لها انحدرت الدموع من عينيها حبهما كان جارفًا وقويًا كالتيار..

تمر الأيام بطيئة ثقيلة هي تنتظر عودته على أحر من الجمر، لكن فتى الأحلام لم يأتِ ولم تعد تدري عنه شيئًا، تسرب اليأس إلى قلبها ومضت السنوات، أصبحت نهبًا للوساوس وأسيرة الشكوك، هل تضيع زهرة عمرها تنتظره؟ ابتسمت لنفسها وهي تحدق في المرآة وتصلح من زينتها، وتبتسم ساخرة:

ـ ياما ضاع في الدنيا.

(4)

بعد سنوات عاد خالد إلى مدينته وإلى فتاته، وهو يكاد أن يطير من الفرح، يحس بالحنين المتدفق يغمره إليها، بعد مصافحة الأهل، خرج يبحث عنها إنه في شوق إليها، تلك التي كانت صورتها لا تفارق خياله، اقترب من منزلها وهو حائر متردد، النافذة موصدة، لمح أحد أخوتها الصغار اقترب منه صافحه سأله عنها بادره الصبي:

ـ أختي تزوجت من أسبوع..

أحس بصدمة قاسية تفصد جبينه عرقًا، أظلمت الدنيا في وجهه كان يردد:

يا لها من طعنة دامية، ذهب مكسور الجناح كطير ذبيح، وكانت الشمس تتراجع نحو الأفق البعيد.